البطل المحارب عبد الله الصدَّة

د / محمد صقر - مصر

(ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) .. حكمة تمسك بها رجال الحرب .. جعلوها نصب أعينهم .. منهم من مات شهيدا، ومنهم من عاش بطلا!

دعاني إلى حفل زواجه زميل دراستي وصديقي (المتولي) الذي يسكن في (بورسعيد) قريبا من (قناة السويس) .. ركبت السيارة التي سُرعان ما أَكْمَلَ السائق عدد ركابها ..

في الطريق إلى (بورسعيد) .. أشتاق مرةً أخرى لرؤية (قناة السويس) التي لم أَرَها منذ أن كنت ذاهبًا إلى (سيناء) أثناء مدة خدمتي في (القوات المسلحة) ..

لن تكون هذه المرة ماتعةً كما كانت الأولى .. ففي أول مرة بعدما مررنا بالقناة راكبين الأوتوبيس مُحَمَّلًا على المعديات التي في القناة؛ مر بنا (الأوتوبيس) في الطريق الساحلي بشمال سيناء .. وطفقت أنظر إلى كل رمالها الجميلة التي تحمل آثار تاريخ سُطِّر بدماء الأبطال المحاربين ..

ما قرأتُ وشاهدتُ وسمعتُ عن حربِنا (اليهود) في (سيناء)- كانت ذاكرتي تتجاذبه .. مواقعُ حربية في الصحراء .. مدرَّعة تمشِّط الطريق تقابلنا (القناة) التي مَرَّ عبرها (الأوتوبيس) عَبَرَ منها أبطال الحرب وأطفؤوا زَهْوَةَ الغَلَبَةِ الفاترة التي كان يتغنَّى بها اليهود .. شهدتْ تلك القناة ملاحمَ وبطولات، وحَوَتْ دماء أبطالٍ وأشلاء شهداء .. لن أَمُرَّ هذه المرة بسيناء ولن

أعبر القناة؛ فصديقي يسكن في الناحية الغربية من القناة قبل (القنطرة) .. ولكن شَنَّفَ مسامعي (البطل المحارب عبد الله الصدَّة) بنفسه بقصته البطولية التي كانت أفضل عوض عما ألمَّ بي من حزن بسبب أني لن أمر بالقناة وسيناء هذه المرة ..

غفل السائق عن مطب في الطريق؛ فَتَرَنَّحَتْ السيارة وشَعُرْتُ بانزياحٍ يسيرٍ في مقعدي .. مطبّ آخر أَقْلَقَني مرةً ثانية .. قلتُ بصوت لا يسمعه إلا من بجواري: "ما لهذا الطريق غير مستوٍ".. رد من بجواري: "ليس للذهاب إلى (القنطرة) غير هذا الطريق، هل أول مرة تذهب إليها؟".

فقلت: "نعم"..

فسألني عن سبب الذهاب؛ فأخبرتُه..

رجلٌ كبيرٌ سِنُّه .. يتجاوز السبعين .. علامات الاعتزاز بالذات والذكاء تَتَدَّفَقُ من الفَخْرِ المُعْلَنِ عنه من جِلسته الشامخة .. يرتدي نظارةً سوداء.. يظهرُ في وجهه وشِدْقِه أَثَرُ جروحٍ قديمةٍ جدًّا .. شرع في الحديث معي بصوتٍ منخفض .. قلت له: "لم أسافر من هذا الطريق قبلًا .. استوضح مني: "ليس للقنطرة إلا هذا الطريق". قلت: "أعني لم أسافر إليها أصلًا".

ودفعًا عني أني لم أذهب إلى تلك المناطق الشمالية الشرقية من مصر قلت له :"أنا سافرت إلى سيناء قبلا لكن هذا الطريق لم أطرقه"..

فسألني: "لماذا سافرت إلى (سيناء)؟".

رددت: "عندما كنت في (القوات المسلحة)".. نطقتها بقوّة واعتزاز عسكريٍ مما لا يزال لديَّ إِثْرَ خدمتي العسكرية؛ فهزّ رأسه هِزَّةَ قوة أعرفُها ممن عشت معهم في الجيش من المُخلِصين منهم تعني القوّة والانتماء

والاطمئنان لمن يحدِّثُهم فقد شعر بما ذكره بقديمه وتاريخه العسكري .. شرع يحكي بعدها عن بطولته في حرب ٧٣ .. لم يقل مباشرة أنه كان محاربا.. كانت السيارة قد اقتربت من محاذاة قناة السويس .. وفي الضفة الشرقية نرى أرض سيناء ..

قال: "هذه الأرض فيها دماؤنا .. ذكريات محفورة في قلبي لا أنساها..".

خَمَّنْتُ أنه كان محاربا .. سألتُه عن سلاحه؛ فعرفني أنه كان في السلاح الجوي.. وقال: "كانت مهمتي وزملائي الإبرار الجوي".

-"وما الإبرار الجوي؟".

-"يعني نطلع على العدو من الجو .. ننزل عندهم نقتلهم ونرجع من غير ما يحس بنا أحد"..

-"وحضرتك كنت جنديًّا؟".

-"كنت ضابط احتياط .. وأكملتُ في الجيش .. دخلت سنة ٦٥ و خرجت ٧٥ .. كانوا -يقصد العدو- يكونون واقفين قصادنا .. من رُعبهم لم يكن يجرؤ على نزول القناة أحد منهم .. من كان ينزل كنا نُعيده إليهم جثة .. غاية ما كانوا يفعلونه يستحمُّون وهم على الشاطئ واقفين .. وكانت نساؤهم يأتين إلى الضفة ويخلعْن ملا بسَهن كلَّها إغراء .. وكنا لا نأبه ولا نضع في ذهننا أفعالهن .. كانت الحَمِيَّةُ لتخليص الأرض فقط .. عقيدة إبرار.. تطهير للأرض من هذا الرجس .. كانوا يقفون حراسًا ..

-"وكيف كنتم تعبرون وهم وقوف وفي حراسة .. طالما أنهم كانوا يرصدون حركاتكم ولا تقدرون على المرور إلى الجانب الشرقي؟".

-"كنا نبحث عن ثَنية ليس فيها أحد .. ثم نزل تحت المياه .. على الأنف والفم نضع مُتَنَفّسًا في نهايته خُرطوم .. هذا الخرطوم ينتهي إلى أعلى سطح الماء ليسمح لنا بالتنفس .. ونصل إلى الناحية الأخرى نقتل من نشاء ثم نرجع وعندما يبدؤون في البحث عنا نكون رجعنا"..

قال لي :"كنا نُذِلهم إذلالا .. نُعجزهم .. كانوا يخافون من كفاءة المقاتل المصري أيما خوف .. اصطدنا (طائرة فانتوم) بطائرة (هلكوبتر) وهذا أشد الإذلال لأن (الفانتوم) لا يوقعها إلا (صاروخ) غالبا .. اصطادها المقاتل بسلاحه .. اعتلى (الفانتوم) بالهلكوبتر الناقلة للمقاتلين ولَدَعَ –قالها بهذا اللفظ- سائقها فَقَلَبَه .. ثم أخذ الآخر.. لماذا فعلنا ذلك؟ لنقول لهم : "أقل شيء (هلكوبتر ركاب) نقضي به على أحدث ما عندكم (الفانتوم) –وكان حينئذ (الفانتوم) أحدث المقاتلات الجوية..

كنا لا نبالي .. نقتلهم أو نظلّ على الجبهة .. لا خيار بعد هذين .. حلفنا يمين الإبرار أن ندافع عن أرضنا بدمائنا غير مبالين بعدوِّنا وعاهدنا الله ألا نتراجع؛ إما نصر وإما شهادة .. قتال حتى آخر قطرة دم؛ حتى آخر نفس نتنفسه .. إنها عقيدة..

قال وأشار على وجهه موضحًا لي سبب هذه الآثار لتلك الجروح القديمة: "هذا جرح، وهذه شظية .. وفتح قميصَه وأشار في صدره -فرأيت التآمًا لجرح في ناحية القلب- وقال: "وهذه طلقةٌ دخلتْ من هنا وخرجت من الخلف .. مَرَّتْ بجدار القلب".

صدمتني وحزت في نفسي إصابته الموجعة؛ فكيف تحمّلها وقد تألمت بمجرد حديثه عنها!؟

استفسرت منه: "أكان ذلك في الحرب سنة ٧٣؟ وكيف حدثت الإصابة؟".

-"كنا في طلعة (إبرار جوي) سنة ٧٥.. أُصبت بطلقة من طائرةٍ .. تَدَرَّبْنا أن نلفّ على الرمال بشكل متوالٍ عند الإصابة لكي لا ترانا (الرادارت الإسرائيلية) .. فإنها لا تميّزُ من يلف في الرمال .. ظللتُ ألفّ حتى وصلت إلى شاطئ القناة .. ونزلت في المياه وتغير لون الماء حولي بسبب كثرة الدم النزيف .. عندما رآني اليهود لم يطلقوا رصاصًا .. لعلهم قالوا: "جثة في مياه .. خسارة فيها رصاصة .. نتركه يرجع إليهم" .. لمَّا نزلت في المياه .. بفضل (الله) سَدَّتْ المياه منافذ الدم" .. ولم يشعر بشيءٍ عندما سقوطه في المياه إلا ما حكاه له أصدقاؤه بعد ذلك .. انتظروه في الجانب الآخر .. بمجرد أن وصل إلى الضفة الغربية حملوه في الطائرة .. وخلال (ثلاث دقائق) كان على سطح المستشفى الميداني .. بعد أن تلقى العلاج، والإفاقة، وإتمام الشفاء .. طلب (الرئيس السادات) أن يكرّمه وطلب أن يأتي أهله معه، فقدم أبوه –وكان عمدة القرية- وقدمت أمه، وفي حضور الإعلام جرائد وقنوات يتم تكريمه هو وزميله الذي أصيب في رجله وكان جالسًا على كرسي فَهَمَّ بالقيام للرئيس؛ فَرَبَّتَ الرئيس على كتفه وأجلسه قائلا: "أنا أنحني لك.. أنت بطل"!

يقول : "وسلمت أنا قائمًا على (الرئيس) فقال لي: أنتم أبطال .. أنتم أبنائي" ..

وَرَدَّ أبوه العمدة :"إنهم أبناؤك يا ريّس .. إنهم أبطال مصر" ..

ومنحهما (وسام نجمة سيناء) .. ورفض (العمدة) أخذ مال .. ولم يُلح (الرئيس السادات) عليه؛ لأنه يعلم أنه غني فهو عمدة .. وألحّ على المحارب

الآخر وكان طبيبًا فأخذ المال .. يقول (البطل المحارب عبد الله الصدة): "لم يَبْقَ إلا أنا وزميلي من أبطال هذه الطلعة .. كنا ٨٤" ..

فزعت من استشهاد ٨٢ فهو عدد كبير، ولم أَدْرِ ما الذي حققوه من حصد رؤوس العدو؛ فسألتُه: "استشهد هذا العدد الكبير!؟" ..

فبادرني بما في نفسي: "ونحن قتلنا كم؟".

قلت له :"كم؟".

فقال: (١٦٠٠) إسرائيلي!

سريعًا مرَّ الطريق .. قرية صديقي في منتصف المسافة .. فأعلمني السائق بقرب المكان الذي طلبت أن ينزلني عنده واستأذنت من (البطل عبد الله الصدّة) أن آخذ رقم هاتفه فشرفت بتسجيله في هاتفي .. أخبرته بأني سعدت جدًّا بالحديث معه وأن يسمح لي أن أتواصل معه فهز رأسه بالموافقة .. قلت له: "الصدفة تلك لن أنساها أبدًا".. هَدَّأَ السائق ثم توقَّفت السيارة .. استأذنت منه ورجوتُ السلامة له .. نزلت من السيارة ووقفتُ انتباهًا تحيةً عسكريةً للبطل حتى تحركت السيارة!